كتاب العروي الاخير

« الاصول الاجتماعية والثقافية للحركة الوطنية المغربية »

سالم يفوت

تحت هذا العنوان ، نشرت دار ماسبيرو في باريس كتابا جديدا للاستاذ عبد الله العروي . وقد أبرز المؤلف في مقدمته ان فكرة تخصيص دراسة للحركة الوطنيه المغربيه في القرن التاسع عشر وبالذات من ١٨٣٠ حتى ١٩١٢ ، خامرت ذهنه مباشرة بعيد حصول المغرب على استقلاله السياسي سنة ١٩٥٦ . وهي فترة أحاط فيها اللبس والغموض بكل شيء وتصدرت فيها المسرح السياسي فئة لا تربطها صله بالحركة الوطنية وتقاليدها النضالية. وهو أمر تجلى بصورة بارزة عندما عاد علال الفاسي من القاهرة ليذكر راكبي الموجة والمتطفلين على الحركة الوطنية أن المغرب الجديد الذي حصل على استقلاله السياسي سنة ١٩٥٦ لا يمثل سوى جزء صغير جدا من المغرب الحقيقي ، وان هناك أقاليم بكاملها لا زال على المغرب تحريرها واسترجاعها مثل نندوف وتوات والساقية الحمراء وشنقيط ... لقد بذلت ادارة الحماية كل ما في وسعها لتضمن استمرارها وتواجدها حتى داخل المغرب المستقل وداخل حكومته «الوطنية» ، وأن تضمن بصورة متوازية أيضا استمرار المغرب في الطريق الذي أرادته : مغرب بدون تاريخ ، مغرب منقطع الصلة بماضيه الوطني النضالي ، مغرب بدون لغته القومية ، بدون حدوده التاريخية الحقيقية ، أو بكلمة مختصرة مغرب الاستقلال الهجين . لذا فان السؤال الجدير بالطرح هو : ما هي الحركة الوطنية المغربية وما طبيعتها ؟ كيف نفسر انتكاسها ؟

في هذا الصدد ، هناك تعريفات شائعة للحركة الوطنية ، كثيرا ما لجيء اليها في محاولة الانكباب على ظاهرة الوطنية .

١ ـ لوكانت الحركة الوطنية المغربية مجرد استمرار للشعور الوطني القديم الذي جعل البرابرة على مر تاريخ المغرب يكرهون كل دخيل ويقاومونه ، لكان بمستطاعنا القول بأن الحركة الوطنية فقدت مبرر وجودها بمجرد أن أحرز المغرب استقلاله ، وغادر المستعمر رسميا بلادنا ، ولكان بمستطاعنا أن نلقي ، في ضوء تجربة الماضي . نورا كاشفا على الصراعات الداخليه التي كبتت الى حين ولظرف وجيز ، لتطفو من جديد على السطح عندما خرج الاجنبي ، واختفى الخطر الخارجي .

٢ ـ اذا كانت الثقافة السياسية في البلاد الاسلامية ترتكز أساسا على مفهوم الامة بالمعنى الديني، فانه يصير من السهل علينا القول اذن بأن التجربة الوجيزة التي مرت بها الحركة الوطنية بالمغرب ، كانت ناتجة عن الوضعية الاستعمارية نفسها وعن تحكم المستعمر بارادة الامة وتسلطه عليها ، وبأن الحركة الوطنية كان لا بد وأن تختفي بمجرد أن أنجزت مهامها .

٣ ـ اذا كانت التبعية في المجتمعات ذات الطابع القبلي هي في الحقيقة تبعيات للقبيلة أو العشيرة ، فقد يغدو بامكاننا ترجيح القول بأن الحركة الوطنية لم ترفع الايديولوجية الديمقراطية سوى كشعار وقتي وظرفي ، ولم ترفع ايديولوجية الوحدة الوطنية الا للدفاع مؤقتا ضد الخطر الذي يتهدد تبعياتها القبلية المحلية ، والذي هو خطر يتمثل في كون الاستعمار حاول أن يوحد البلاد ، لصالحه طبعا ، وأن يقضي على توزعاتها القبلية ، لذا فان الحرية بالنسبة للحركة الوطنية كانت تعني بصورة واعية أو غير واعية ، على الاقل بالنسبة للزعماء ، الرجوع الى التحالفات القبلية الاولى .

٤ ـ لو عرفنا الحركة الوطنية بأنها حركة قادتها الطبقة البورجوازية ، لاصبح بمستطاعنا أن نفهم لماذا تخلت هذه الطبقة عن مهامها الوطنية بمجرد أن حققت غرضها المطلوب ، ألا وهو الاستيلاء على السلطة السياسية بعد الاستقلال ، بينما أدركت الفئات الشعبية أن لا جدوى من الاستمرار في الطريق نفسها بعد أن خانت البورجوازية شعاراتها .

٥ ــ لو كانت الحركة الوطنية مجرد حركة تزعمتها فئة اجتماعية معينة لها حنكة سياسية ، لكان بمستطاعنا أن نستنتج من ذلك ان نجاح الحركةالوطنية كان لا بد وأن يفضي بالضبط الى نهايتها وتجاوزها باعتبارها كانت اطارا تتم فيه عملية تسييس انتهت بانتهائه .

٦ ــ لو قلنا أخيرا بأن الوطنية لم تكن الا مفهوما سلبيا ، وتحديدا شكليا يشمل عدة حركات ايديولوجية واجتماعية وسياسية منعها الوجود الاستعماري من أن تعبر عن نفسها بكيفية ايجابية ، لسهل علينا فهم سر انكسافها المفاجيء ، ما دام مجيء الاستقلال أتاح لهذه الحركات خوض المعركة السياسية بأشكال مفتوحة ، في اطار دولة وطنية تسمح بذلك .

يلاحظ العروي ان التعاريف السالفة هي من وضع باحثين مرموقين ، ولا يمكن قبولها أو رفضها بصورة قبلية لا جملة ولا تفصيلا . وما يطغى على الثلاثة الاولى منها انها تنقص من دور البورجوازية أو دور الطبقات المتوسطة ، أما الثلاثة الاخيرة ، فانها تعزو اليها دورا عظيما . وكيفما كان الامر فان الخطوة الاساسية التي علينا أن نخطوها في سبيل رؤية موضوعية هي اعطاء تقييم للبورجوازية المحلية سواء كانت بورجوازية أفرزها التركيب البنيوي للمجتمع المغربي التقليدي أو بورجوازية ظهرت من عدم .

ويوصي الاستاذ العروي ، في تحديد البورجوازية المغربية ، بعدم الاكتفاء باستعمال معايير اقتصادية ، لان ما يلزم القيام به هو معرفة الى أي مدى كانت هذه البورجوازية بورجوازية ، والى أي حد كان مضمون ومحتوى وطنيتها بورجوازيا .

* * *

خصص الاستاذ العروي القسم الاول من كتابه للحديث عن ما أسماه بالنظام المغربي ، وقد حاول في الفصل الاول منه التنقيب عن أسس ومرتكزات المجتمع المغربي مبرزا ان غرضه الاساسي من ذلك أن يبين كيف كان ينظر الى المغرب في القرن ١٩ ، وان الامر لا يتعلق بالتساؤل عما اذا كانت توجد أمة مغربية قبل هذا القرن لا سيما وان كل حركة وطنية ليست في حاجة الى أن تعتمد في نشأتها وتطورها على وجود أمة ، بل يكفي لنشأتها أن تكون لديها نية في خلق وتأسيس تلك الامة ، غير ان ما لا مجال للنزاع فيه مع ذلك هو ان كل حركة وطنية توظف وتستثمر المواد الاولية التي تجدها جاهزة ومتوفرة سلفا ، ويعترف بأن غايته في ذلك الفصل هي بالضبط كشف الغطاء عن تلك المواد . وقد لجأ في ذلك الى الاعتماد على شهادة المؤرخين والرحالة الاوروبيين ، لانها شهادة تضخم ما انفرد به المغرب عن أوروبا ، وما بدا في أعين الاوروبيين انه غريب عما ألفوه .

وفي خلاصة ذلك الفصل ، يرى الاستاذ العروي ان الصورة التي يعطيها الاوروبيون عن المغرب ، والصورة التي يعطيها المغاربة عن أنفسهم في القرن التاسع عشر ، صورة غير واضحة وغير متجانسة : فما كان يطبع المغرب هو عدم الوحدة وعدم الاستقرار . هناك ضعف في المستوى التكنولوجي ، ويتجلى ذلك في عدم تنوع المحاصيل والمنتوجات وفي صعوبة تصريفها وتبادلها . والنتيجة التي يجد المرء ملزما بعدم التردد أمام قبولها هي انه لم يكن هناك أي تناسب أو توافق بين مستوى الانتاجية وتقسيم العمل الاجتماعي من جهة ، وبين حركية السكان . غير ان قلة الطرق بالمغرب في تلك الفترة ، وندرة القناطر ، وعدم اعتماد العربات في النقل والتنقل لا يعني بالضرورة ان المغرب كان مقسما وموزعا الى أجزاء لا علاقةبينها ، فقد لاحظ الاستاذ « جاك بيرك » وجود وحدة دينية تتمثل في شعور المغاربة المشترك بانتمائهم الى العقيدة نفسها والى الامة الاسلامية نفسها . الا ان العروي يرى بالاضافة الى ذلك ، ان لدى المغرب في تلك الفترة شعورا قويا بتمايزه واختلافه في اللباس واللهجة والموقعالجغرافي.

أما في الفصل الثاني من القسم نفسه فقد سعى العروي الى ابراز معالم السلطة الحكومية المركزية والحديث عن المجتمع المغربي من خلال رؤية السلطة المخزنية له ، دون أن يألو جهدا في اظهار الخلفيات الايديولوجية الثاوية وراءها كرؤية . وفي هذا الاطار تحدث المؤلف باسهاب عن نظام البيعة ، والظروف التي كانت تتم فيها ، كما تحدث عن المخزن والعناصر التي يتألف منها ، وقد حصرها في عنصرين : الجيش والبيروقراطية . فيما يتعلق بالعنصر الاول تحدث عن أنواع الجند وأصولها ومنحدراتها القبلية وعن الامتيازات التي كان يخولها لها عملها في سلك الجندية. أما العنصر الثاني فقد تحدث فيه عن كتّاب الدواوين وشروط قبولهم لمزاولة هذا المنصب ، كما تحدث عن الامناء ، الا انه أوضح ان الامناء وكتّاب الدواوين لم تكن لهم سلطة تذكر بالمقارنة مع المخزن مثلا في الجيش أو في حرس البلاط (البواخرة) . وفي نقطة ثالثة تعرض للفئات والجماعات التي كان يرتكز عليها النظام المركزي فتحدث عن الشرفاء ودورهم ووظيفتهم الايديولوجية . ثم عن العلماء والدور الكبير الذي كانوا يتمتعون به في المغرب كسلطة استشارية . كما تعرض للاعيان ، أي لتلك الفئة المكونة أساسا من التجار ورؤساء التعاونيات الحرفية . انها فئة ينتمي اليها التجار الاثرياء الذين اغتنوا من التجارة والتعامل مع التجار الاجانب في انكلترا وفرنسا والمانيا وتونس

ومصر والسنيغال ... وبهذا الصدد يتساءل العروي عما اذا كان من الممكن القول بان هذه الفئة كانت تمثل طبقة بورجوازية مغربية . ان الملاحظ هو ان هذه الطبقة مركزت في يدها الثروة والسلطة خصوصا في عهد مولاي سليمان ومولاي عبد العزيز . وقد ترتب عن ذلك أن نشأت لدى أفرادها وحدة في التفكير وفي السلوك. واغلب الاسر التي كانت تعيش تحت حماية القنصليات الاوروبية بالمغرب كانت من فئة الاعيان . بالاضافة الى ذلك ان هذه الفئة قبلت بدون تردد دخول المغرب تحت الحماية الفرنسية . لكن ما عدد الاسر المكونة لهذه الفئة وما هو تأثيرها ونفوذها ؟ بالمقارنة مع البورجوازيات الحديثة ، لم تكن فئة الاعيان في المغرب في القرن التاسع عشر سوى فئة ذات ملامح بورجوازية . فهي عبارة عن أفراد شبيهين بما نعثر عليه في المدن الايطالية في القرنين الرابع والخامس عشر .

والنتيجة الاساسية التي يستخلصها العروي من تحليله هي ان هذه الفئة كانت تعيش على هامش السلطة . أي انها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي ، لذا انطبع سلوكها بالحربائية والظرفية . فقد أعانت السلطان لفترة ما ، خصوصا وانها كانت تستفيد من المخزن قدر استفادتها من التعامل التجاري مع أوروبا ، لكن في الفترات التي بدأت فيها الاطماع الاستعمارية تتكالب على المغرب ، وفي الاوقات التي اصبحت فيها السلطة المركزية سلطة ضعيفة ، نجد ان فئة التجار هذه ساندت الاستعمار وأيدت الحماية .

أما فيما يتعلق بطبيعة نظام السلطنة في المغرب ، أي ما يطلق عليه عادة اسم المخزن ، فيرى العروي انه كان نظاما ضعيفا ، وما يشهد على ذلك هو ان نشاطه الدائم كان نشاط جمع وضم ولمّ شتات مناطق وأنحاء البلاد : يتمثل ذلك في الحملات المستمرة والحركات التي كان يقودها السلطان ضد قبيلة ما قصد اخضاعها أو اخماد تمردها .

وفي خاتمة الفصل ينبه العروي الى ان الجماعات التي ارتكز عليها النظام المركزي لم تكن تشكل جماعات متراتبة ، تميز بينها فروق طبقية . بل كانت جميعها تتساوى أمام السلطان ومن خلاله باعتباره دعامة النظام . ثم يطرح سؤالا حول امكانية الحديث عن دولة ومجتمع مغربيين في القرن التاسع عشر . ان لهاتين الكلمتين معنى جد دقيق ، فالى أي حد يمكن انطباقهما على مغرب ما قبل الحماية ؟

يخصص العروي ، للاجابة عن هذا السؤال، فصلا بكامله ، وهو الفصل الثالث ، الذي تساءل في بدايته : هل وجدت سلطات محلية كانت تنازع سلطة المخزن أو تتهددها ؟ أو بتعبير أكثر عصرية . هل وجدت معارضة سياسية ؟ قبل الدخول في تفاصيل هذه المسألة يلفت العروي نظر القارىء الى ان مستوى المعارضة في المغرب قبل الحماية كان مستوى غير وحيد البعد . أي ليس مستوى سياسيا صرفا . بل تحكمت فيه عوامل اقتصادية واجتماعية لا بد من القاء ضوء كاشف عليها . لا سيما وان الغاية الاساسية التي يسعى اليها الكتاب هي أسس وأصول الحركة الوطنية المغربية من خلال الاجابة عن سؤال رئيسي هو : كيف تشكلت النخبة السياسية في المغرب ؟ وما هو مستوى التجانس والوحدة اللذين عرفهما المغرب على امتداد ترابه ؟

تتحدث الكتب التاريخية عن ثلاث قوى محلية نازعت السلطة المركزية بسط نفوذها وهيمنتها على المغرب . هذه القوى الثلاث هي :

١ ـ التمردات الحضرية . التي كانت تعرفها المدن بين الفينة والاخرى .

٢ ـ الزوايا .

٣ ـ التمردات التي كانت تعرفها البوادي بكثرة ، مما كان يلزم السلطة بمحاولة اخمادها والقضاء عليها .

فيما يتعلق بالتمردات الحضرية أبرز العروي ان المدن المغربية كانت كلها تحت قبضة يد المخزن ، وبالمقابل ، كانت المدن كلها تؤيد المخزن باعتبار انها كانت تؤوي فئة ارستقراطية حضرية ارتبطت مصالحها بمصالحه . بوصفها تتقلد أهم الوظائف المخزنية ، مثل وظيفة القاضي والمحتسب ... والى هذا يرجع السبب في كون البوادي المغربية كانت تنظر الى المدينة دائما بأنها تجسيد لسلطة المخزن ورمز لها ، وهو أمر على جانب كبير من الحقيقة ، فنادرا ما عرفت المدن تمردات اذ ان المؤرخين لم يتحدثوا سوى عن تمرد فاس على السلطان مولاي سليمان ، ثم تمردها على السلطان مولاي عبد الرحمن ، وأخيرا على الحسن الاول سنة ١٨٧٣ ، وعن تمرد مدينة الرباط سنة ١٨٤٤ وآزمور ومراكش على عمال السلطان محمد الرابع . الا ان أطولها جميعا هو تمرد فاس سنة ١٨٧٣ . وقد اعتقد كثير من المؤرخين الغربيين انه تمرد قادته بورجوازية المدينة ضد استبداد المخزن . وهو اعتقاد ، حسبما يرى العروي ، فيه شيء من التسرع ، لا سيما وانه يريد أن يماثل ثورات المدن المغربية بثورات الكومونات الاوروبية . كما ان الحقيقة تثبت انها تمردات قادتها العامة ، لا سيما الحرفيون ، الذين ضاقوا ذرعا بالمكوس والضرائب المفروضة على المواد الاولية . لذا فان الامر لم يكن يتعلق بتمردات بورجوازية ضد الاجراءات الاستبدادية ، بل تعلق أساسا وبصورة رئيسية باستياء عمّ صغار الحرفيين وصغار التجار الذين كانوا منظمين في تعاونيات وتعاضديات حرفية .

أما الزوايا ، فقد شكلت ظاهرة اجتماعية تجلت

تحت مظاهر متنوعة ومختلفة ، وليس من الغريب أن نلاحظ ان كلّ الدراسات التي عملت بصددها كانت دراسات يطبعها النقص وعدم الشمولية . فقد اتخذت الزاوية طابع مكان الاجتماع والندوة ، خصوصا في المدن ، مثل الزاوية الناصرية والزاوية الوزانية والزاوية التيجانية ... فهي ناد يرتاده اعضاء طريقة ما أو جماعة دينية . والملاحظ انه في المدن التي يطغى عليها الطابع البورجوازي كتطوان وسلا والرباط وطنجة وفاس ، تشكل الزاوية منتدى دينيا . هذا ، وقد انتشرت في البادية المغربية أيضا بعض الامكنة التي كان يقدسها الناس ، اما لوجود قبر ولي مدفون بها ، أو لوجود شخص صالح يتبرك الناس بالتقرب منه .

كيف كان الناس ينظرون الى هذه الزوايا والاضرحة ؟

١ ـ انها مكان للاستشفاء .

٢ ـ هي أيضا مكان لتلقي العلم ، لا سيما وان رئيسها عالم او على الاقل طالب علم . وحتى في بعض عصور الانحطاط الحضاري في تاريخ المغرب بقي انتشار العلوم الفقهية والدينية على حاله لم يمس ، اذ من الوظائف الكبرى التي قامت بها الزوايا نشر العلم . وبهذا الصدد يجب التذكير بالدور الكبير الذي لعبته في هذا المضمار الزاوية الفاسية والزاوية الناصرية والزاوية الدلائية .

٣ ـ كانت للزوايا وظائف اجتماعية واقتصادية أيضا : فهي منتدى يرتاده الناس . وهي في البوادي والمناطق النائية محطات يرتادها التجار والمسافرون خلال رحلاتهم . بل في بعض الاحيان الاخرى تنظم بها المواسم والمعارض التجارية .

٤ ـ للزاوية دور قضائي يتمثل في النظر في القضايا التي يتنازع حولها بعض الاهالي أو بعض القبائل . فهي مكان للاحتكام والنظر في الشكاوى وفض النزاعات .

٥ ـ الزاوية أيضا حصن يحتمي به بعض الفارين من عقوبة المخزن . فهي مكان يلوذ به المستجير . ويأتي ذلك من أن للزاوية حرمة لا تخترق .

٦ ـ كانت الزاوية تشكل عنصرا سياسيا يهاب جانبه : فباستطاعتها أن تؤيد أحد المتنازعين على السلطة ضد الاخر . مثال ذلك أن الزاويتين الوزانية والدرقاوية أيدتا وبايعتا سنة ١٨١٩ـ١٨٢٠ المولى ابراهيم بن اليزيد ضد عمه السلطان مولاي سليمان ...

أما من حيث موارد الزاوية ، فهي عموما ، ترجع الى الهدايا والذبائح والزيارات (أي ما يقدمه الزائر الى الزاوية قصد التبرك) ورسوم الاستشفاء أو رسوم فض النزعات ... علاوة على المداخيل الاخرى المختلفة .

عندما تغتني الزاوية ، تصبح تمتلك قطعا أرضية يحرثها أتباعها . واذا كان موقع الزاوية يوجد على طريق تجاري رئيسي ، توظف الزاوية رءوس اموالها في التعامل التجاري ، كما نلاحظ ذلك مع زاوية ايليغ (زاوية أحمد وموسى) وزاوية تمكروت (أي الزاوية الناصرية) . غير أن أهم مورد تحصلّ عليه بعض الزوايا هو اقتطاع المخزن اياها بعض الاراضي كمكافأة لها على مساندته ابان خلاف أو نزاع حول السلطة او أي شيء من هذا القبيل . اذ بهذه الطريقة استطاعت الوزانية امتلاك أراضي سهول الغرب .

هكذا نرى أن للزاوية وظائف متعددة ، فقد تكون الزاوية مجرد مسجد تؤدى فيه الصلوات ، أو قد تتشابك وظائفها لتتحول الى اقطاعة لها وكلاؤها العقاريون ...

وفي خاتمة حديثه عن الزوايا ، يذهب الاستاذ العروي الى أن نظام الزوايا هيأ الميدان لنظام الاحزاب . انه كان نظاما مخزنيا مصغرا ، وعلى المستوى المحلي . وخلافا لما قد يبدو من أن الزوايا كانت بالفعل تمثل سلطات محلية مستقلة ، يبادر العروي الى القول بأنها حاولت تحقيق وحدة أفقية ، فالزاوية الناصرية تفرعت الى عشرين زاوية منتشرة بالمغرب كما أن الزاوية الدرقاوية امتدت حتى سوس وحتى المناطق المجاورة للريف . ان انتشار الزوايا بالمغرب ليس يعكس بالضرورة طابعا اقليميا أو انعزاليا ، كما ليس يعني حتما أن المغرب كان مفككا وموزعا الى دويلات ، بل وجد لدى مختلف القبائل المغربية ارتباط ببعض النقط والاسس التي تثبت اشتراكهم في الشعور بأنهم ينتمون الى وطن واحد .

لقد درج دارسو المغرب الاستعماريون بصورة أساسية على القول بأن المغرب قبل الحماية لم يكن سوى قبائل منتشرة هنا وهناك، وهم في هذا يرددون الاطروحة نفسها التي قال بها المخزن عندما ميز بين أراضي المخزن وأراضي السيبة . وهو تمييز ايديولوجي ، بمعنى أن المخزن كان ينظر الى المناطق الخاضعة لمعاييره ، على أنها مناطق مخزنية ، بينما كان يعتبر المناطق التي كانت ترفض ذلك مناطق سائبة وطليقة وخارجة عن الشريعة . ان كل عدم مشاركة للسلطة المركزية ، كانت المخزن يعتبرها سيبة ، بينما كان يعتبر الرضوخ للسلطة المركزية رضوخا للشريعة . السيبة جاهلية ورفض الخضوع للمخزن ، ردة عن الاسلام وعن أحكام الشريعة في هذا السياق نظر المخزن الى التمردات القروية واعتبرها ناشئة عن نزوع جاهلي أصيل في القبائل المتمردة .

لقد وجد كيان مغربي ، لكنه كيان غير جامد ، بل كان مؤلفا من عناصر بنيوية متنافرة ، العلاقة القائمة بينها علاقة جدل ، الا انه جدل مخالف لجدل الطبقات المجتمعية الذي يتحدث عنه العلم السياسي الحديث ، لكن ذلك لا ينفي عنه كل دينامية وتطور ووحدة .

أما الفصل الرابع فقد خصصه العروي لدراسة

الثقافة المغربية فتحدث عن نظام التعليم ووظيفته الايديولوجية : ولاحظ ان الاهتمام انصب على تدريس مادتين رئيسيتين هما الفقه والآداب ، والسبب في ذلك هو انه خارج مهنة التعليم ، ازداد الطلب على مهنتين رئيسيتين : مهنة القضاء ومهنة الكتابة ، اي كتابه الدواوين . ثم تحدث عن وسائل انتشار الثقافة بالمغرب في القرن التاسع عشر كالمكتبات والمطابع والصحافة ولاحظ تخلف المغرب عن دول المشرق في هذا المضمار . وفي نهاية هذا الفصل أبرز العروي أنه ان كان التعليم من حظ النخبة المغربية الحضرية التي كانت تحتكر وظيفتي الكتابة والقضاء ، فان الثقافة التي تشبع بها سواد الشعب هي الثقافة التصوفية ، أي مجموع الاعتقادات التي كانت الزوايا تنشرها .

* * *

ملاحظات ثلاث اساسية يقدمها العروي في نهاية القسم الاول من كتابه :

١ ــ لا يمكن لاي مجتمع كيف ما كان ، أن يقاوم الاحتلال أو الغزو الاجنبي ما لم يوجد فيه شعور معين بالوحدة . ويجدر التنبيه الى أن القبائل المغربية ، عربية كانت او بربرية ، تشبثت باصلها المشترك ، كما أن الزوايا تشبثت بقطب واحد ... كما ان مراكز التعليم اعتمدت مناهج التدريس نفسها والتسلسل نفسه . فنحن بالتأكيد أمام ايديولوجية ممركزة واحدة تخدم مصالح السلطان ، غير أنه ان نظرنا اليها كايديولوجية ، من افق بحثنا هذا ، لعثرنا فيها على أساس آخر قامت عليه وحدة المغرب .

٢ ــ مكننا التحليل الاجتماعي من الاشارة الى وجود تعايش بين أشكال تنظيم مختلفة، دون أن يوجد بالضرورة بينها أي تراتب أو تفاوت . العشيرة والزاوية والمخزن ، وهو نظام مهزوز وغير قادر ، سيعمل الغزو الاجنبي على تفجيره . من سمات اشكال التنظيم العمودي ان قاعدتها غير عريضة وغير متسعة ، لكن النظام الذي كان منتشرا عبر امتداد التراب المغربي ، هو النظام العشائري الذي هو نظام يناقض بطبيعته المراتبية والتفاوت . علاوة على ذلك ، لم تتجاوز سلطة الزوايا حدود الاقطاعة ، وهو أمر كان نادر الوقوع ، الا مع بعض الزوايا ذات النفوذ القوي كالزاوية الوزانية ... أما السلطان ، فقد كان نقطة اسناد جميع هذه الانظمة ، دون أن يملك زمام التحكم في مبادراتها . وفي مواجهة أي خطر خارجي ، من الطبيعي أن يكون رد الفعل متنوعا ومختلفا ومتمايز النفس . فرد فعل المخزن والمدن أكثر مرونة منها جميعا، لا سيما وانه رد فعل يريد أن يستعمل في مواجهة الخصم أسلحته ذاتها ، لذا كان هشا لا يستطيع أن يصمد زمنا طويلا . أما رد فعل الزوايا ــ الاقطاعات فمع أن له نفسا أطول نسبيا ، وروحا أكثر نضالية ، فان مآله هو نفس مآل فعل المخزن . ويبقى في الاخير رد فعل أغلبية الشعب الممثل في مجموع قبائله تحت قياداتها المعروفة باسم الجماعات . بالمقارنة مع الاولين يلاحظ العروي أنه اكثرها حدة واستماتة وصدقا .

٣ ــ أتاح لنا تحليل الثقافة المغربية ان نلاحظ أن الجواب السريع والوحيد المشروع الذي واجه به المغاربة التحدي الخارجي هو الرفض ، ورغم أن الايديولوجية المعنية كانت ايديولوجية زمرة ونخبة خاصة، هي العلماء، فانها فرضت نفسها على كل مغربي . أن رفض العلماء نحول ليصبح صياغة ثقافية وفكرية لرفض كل المغاربة .

* * *

بعد ذلك . يخصص الاستاذ العروي القسم الثاني من مؤلفه ، للحديث عن الازمة التي عرفها النظام المغربي بعد تكالب الاطماع الاستعمارية عليه ، وفي هذا المضمار يعقد الفصل الاول من هذا القسم لمناقشة بعض المفاهيم التي عن طريقها حاول الاجانب تفسير عداء المغاربة لهم . وهي مفاهيم أربعة :

١ ــ كراهية المغاربة للاجانب .
٢ ــ سوء نية السلطان .
٣ ــ عرقلة المخزن لمشاريعهم .
٤ ــ موقف العلماء المحافظ ، والمعادي لكل تدخل أجنبي .

يرى العروي ان ما جعل السلاطين المغاربة في القرن التاسع عشر يسيئون الظن بالدول الاوروبية ، هو علمهم بأن مراميها الحقيقية والخفية مرام واحدة . وانه كلما فتح الباب أمامها لتنمية معاملاتها التجارية ، أدى ذلك الى وفود ومجيء عدد أكبر من الاوروبيين ، وبالتالي الى تكاثر المشاكل والحوادث ، وما دام السلطان مسؤولا عن حماية أمن الرعية ، فانه سيصبح مضطرا الى الاكثار من عدد الجند حتى يكظم غيظها ويحبس استياءها ، ويجتنب ما أمكن ، ما قد يؤدي اليه اصطدام السكان بالاجانب ، من غرامات تلزم خزينة الدولة بادائها . لقد كان السلطان يعلم علم اليقين أن التجارة الاوروبية على أرض الوطن المغربي فيها مس باستقلاله وكرامته . فكراهية الاجنبي ، ليست صفة سيكولوجية متأصلة في طبيعة المغربي ، بل هي نتاج تناقضات فعلية وواقعية تتجلى آثارها في الحياة اليومية آنذاك .

أما العلماء ، فقد رأوا في مجيء الاوروبيين تهديدا للشرع وتقليصا لسلطة ممثله وهو القاضي ، لا سيما وان الاوروبيين كانوا يشترطون تفويض أمر فض النزاعات التجارية بينهم وبين المغاربة الى القنصل أو الممثل الديبلوماسي للبلد الذي ينتمون اليه . وقد أدت بهم (أي العلماء) معارضتهم المبدئية لمثل هذه التجاوزات ، الى معارضة كل بدعة . لذا ستتبلور معهم ايديولوجية

سلفية معارضة لاندماج البلاد في الحضارة الغربية ولما يؤدي اليه ذلك من محو وطمس لمعالمها الحضارية الاصيلة.

أما سكان البوادي ، فمن جراء غلاء المعيشة ، وبداية ظهور أعراض الازمة الاقتصادية الناتجة عن تصادم نظامين معيشيين ، تمردوا على السلطة المركزية محملينها تبعات كل ما حدث .

لم ير الاوروبيون في هذه الالوان من ردود الفعل سوى أنها دليل على كراهية المغاربة للاجانب وعلى انزوائهم الاقليمي . في حين يرى الاستاذ العروي ، أن كراهية الاجانب ، تشكل في الحقيقة مستوى قاعديا أوليا من مستويات الشعور الوطني والوعي القومي . والملاحظ هو أن الحركة الوطنية بالمغرب هي استمرار للشعور نفسه وتطوير له .

في مواجهة الخطر الخارجي ، حاول المخزن القيام ببعض الترميمات وادخال الاصلاحات على جهازيه الاداري والعسكري ، الا أنها منيت جميعا بالفشل ، نتيجة وقوف صعوبات كبرى أمامها . لقد كان المخزن ملزما ، قصد انجاز اصلاحاته المرجوة ، أن يدخل في مسلسل علماني، ويدخل في قطيعة مع بعض الاعتبارات الدينية والشرعية، التي كان يتشبث بها العلماء والفقهاء . لذا يرى العروي ، ان مشروع المخزن الاصلاحي ، سار في السبيل نفسه الذي كان يرجوه الاجنبي ، وهذا هو السبب الذي جعل العلماء يعتبرونه خروجا صريحا عن تعاليم الشريعة وارتماء في احضان الاوروبيين . ومن خلال عدم الرضى هذا بدأت تتبلور معالم الاتجاه السلفي المغربي الذي سار فيه العلماء المغاربة ، والذي طبع الحركة الوطنية منذ نشوئها.

لقد أثارت التدابير والاجراءات الاصلاحية التي حاول المخزن اتخاذها سخطا ومعارضة كبيرين لا سيما من طرف العلماء الذين رأوا فيها بداية نهاية الامة الاسلامية ، لذا ستتخذ هذه المعارضة صورة دفاع عن الشرع وعن التقاليد الاسلامية وعن وحدة الامة تجاه أولئك الذين حاولوا دمجها كرها في الانظمة العلمانية اللادينية . من أجل هذا تعالت صيحات العلماء داعية الى الجهاد أو الى ضرورة النصيحة . ومما زاد الامور تعقيدا أن الجالية اليهودية بالمغرب التي كان وضعها القانوني والشرعي بالمغرب وضع أهل ذمة ، بدأت ، بدافع من مصالحها ومصالح القوى الاستعمارية الاجنبية التي تحركها ، تحاول الخروج عن الطوق رافضة تفويض النظر في شؤونها الى القاضي الشرعي ، كما جرى بذلك العمل . بل ان بعض الاسر والعائلات المغربية ، بدافع من فقد الثقة وعدم الاطمئنان الذي أصبح شبحه يهدد المجتمع المغربي ، طالبت بالدخول في ذمة بعض القنصليات الاجنبية وبحمايتها لها ، مقابل مقادير مالية كانت خيالية في بعض الاحيان . وقد اعتبر غالبية علماء الدين في هذه الفترة، هذه الفئة خارجة عن الدين ومارقة ومرتدة ، حكمها حكم الكافر ومرتكب الكبيرة ، كما حملوا مسؤولية ما يقع من مس بسمعة الدين ومن تقصير في حمايته لا على عاتق الاطماع الاجنبية وحدها ، بل حتى على عاتق المخزن .

لذا يمكن القول أن علماء الدين الذين كانوا في السابق ، أي في فترات قوة المخزن والدولة ، أهل الحل والعقد ومستشاري السلطان ، صاروا في نهاية القرن التاسع عشر يتزعمون المعارضة لا سيما في المدن. غير أن ما يلفت العروي النظر اليه ، هو أن الاستياء لم يخص المدن وحدها ، بل شمل المناطق البدوية أيضا التي لم تعرف سوى التمردات تلو التمردات ، نتيجة ازدياد الضغط الاجنبي على المغرب من جراء الديون التي كانت للدول الاوروبية عليه ، ونتيجة الفقر المدقع الذي كانت تعيش فيه مختلف الفئات ، بما فيها رجال المخزن من ضباط ورؤساء الجند الذين امتزج لديهم القتال بالسلب والنهب ، مما جعل السكان المغاربة لا يبدون أي تعاطف معهم . علاوة على جميع هذه الوقائع ، حاولت الدولة المغربية في عهد السلطان عبد العزيز ادخال بعض الاصلاحات أعطت عكس النتيجة المرجوة ، خصوصا في البوادي ، فاذا كان القائد أو العامل سابقا يتصرف كيفما كان يحلو له ، فيفرض ما يريد من الضرائب ، فان تقنين الضرائب ومراجعة ضريبة الترتيب على الاراضي ، أدى الى الحد من سلطته والى نزع طابع الهيبة الذي كان يراه بها السكان . وقد زاد كل ذلك في اذكاء نار التمردات في البوادي التي اتخذت صورة انتشار اللصوصية وقطع الطرق على يد بعض الاشخاص أمثال الريسوني في شمال المغرب . أو صورة ظهور بعض الذين ادعوا السلطنة والملك أمثال أبو حمارة ، الذي أيدته بعض القبائل في البداية محاولة أن تجعل منه رمزا تجسد فيه عداءها للمخزن الذي بدأ في نظرها يرتمي في أحضان الدول الاوروبية ، لكنها ما لبثت أن تخلت عنه بعدما ظهر لها أنه هو الاخر كان دمية في يد الاسبان والفرنسيين . والملاحظة التي يبديها الاستاذ العروي بهذا المضمار هي أن زعماء التمردات كانوا في غالبيتهم مخزنيين سابقين ، فأبو حمارة كان مهندسا في الجيش السلطاني ، لهذا فرغم تمردهم على المخزن ، وكسبهم في بعض الاحيان لعطف بعض القبائل ، فانهم أعادوا المخزن سلوكا وتصرفا. هكذا يكون المخزن قد أولد نقيضا من جوفه ، الا وهو التمردات الهادفة الى الخروج عن البيعة ، واقامة بيعة جديدة ، الا أنه نقيض لم يتجاوز نفس اشكالية المخزن .

لقد حاول السلطان عبد الحفيظ ، بعد حصوله على ثقة العلماء ، وكل الذين لم يكونوا راضين على سلفه ، أن يحقق الاهداف الاساسية التي دفاعا عنها ظهرت التمردات في البوادي وعم الاستياء أعيان المدن وعلماءها ، غير أن السلطان عبد الحفيظ وجد نفسه عاجزا عن

ذلك . فالخزينة المخزنية كانت مرهقة بالديون المتراكمة عليها ، وما هو أكثر من ذلك هو أن السلطان نفسه طلب من فرنسا مزيدا من القروض ومزيدا من الدعم العسكري، وبذلك ، جعل من غزو فرنسا للمغرب وفرضها الحماية عليه أمرا محتوما ومشروعا بالنسبة للمنطق الاستعماري. ويذهب الاستاذ العروي في خاتمة القسم الثاني والاخير من كتابه الى أن النضال السياسي والاجتماعي الذي خاضه المغرب من سنة ١٨٦٠ حتى الحماية كان نضالا عبر وأفصح عن نفسه بواسطة مفاهيم ومقولات تجد أساسها في الدين الاسلامي ، لا سيما وان الافكار الليبرالية الحديثة كانت غائبة عن المشهد الاجتماعي ، وان كان لبعض الافراد القلائل اطلاع عليها . لقد دأبت كل زمرة اجتماعية على تبرير مطامحها في حدود الثقافة التقليدية وعلى الدفاع عن هذه الاخيرة في الوقت نفسه. لذا صار الشرع هو لغة المجتمع المشتركة ورمز وحدتها . فاذا كان الخطر الاوروبي الاستعماري قد شكل تهديدا بالنسبة لاستقلال السلطان ولرفعة الدين وللنظام الاجتماعي القائم ، فان رد فعل الجميع تم انطلاقا من منظومة أسناد واحدة هي الشرع : لقد دافع السلطان عن مكانته باعتباره حامي الدين ضد المارقين ، أما العالم فقد دافع عن مكانته بوصفه من أهل الحل والعقد واحد من يجب أن يستشاروا في شؤون الامة ، بينما نصب زعيم التمرد من نفسه مدافعا عن استقلالية البلاد ضد التدخل الاجنبي ، وضد انسياق المخزن لاطماعه .

هذه المواقف كانت منطبعة بكراهية الاجنبي وبالتزمت الديني وبالوطنية والشعور القومي . ويرى الاستاذ العروي أن حركة المجتمع المغربي من سنة ١٨٣٠ حتى ١٩١٢ ، كانت حركة مناهضة ، وبصور مختلفة للتدخل الاجنبي . أدت بالتدريج الى تمايز وافتراق القوى الاجتماعية المغربية . وأخيرا الى تقوية القيم الثقافية التقليدية . هذه الوقائع الثلاث امتداد لتجربة تاريخية سحيقة في القدم نسبيا انتكس فيها المغاربة انتكاسة كبرى ، عندما طردوا من الاندلس . لذا فهي وقائع حددت الاطار العام الذي تبلور فيه الوعي الوطني المغربي .

ان للحركة الوطنية بالمغرب خصوصيات ، تعطيها كحركة ، وجها أصيلا وطابعا نوعيا يفردها . ان التحريض في قيامها تم من الخارج ، فخلافا لما يلاحظه الدارس لتاريخ القوميات الاوروبية ، التي هي وليدة التحولات التقنية والصناعية نجد أن الوطنية المغربية نشأت بتزايد أطماع الاجنبي وتصاعد ضغطه ، وهو عدو تقليدي ، أرغم المجتمع في نهاية القرن التاسع عشر على أن يعيد النظر في نفسه وفي قيمته . وربما يرجع السبب في ذلك الى أن ضغوطه هذه المرة جاءت في ظروف أصبحت فيها القوى الاجتماعية المغربية تتمايز مصالحها ورؤاها وتفترق في تطورها كجماعات أو زمر اجتماعية . لكن الايديولوجية السلفية كانت ايديولوجية الجميع ، ولغة المجتمع المشتركة . وهذا ما جعل علال الفاسي ، رغم صغر سنه يفرض نفسه على رأس الحركة الوطنية ، خصوصا بعد أن أصبح دور العالم المعارض شاغرا بعد موت محمد الكتاني . لقد اجتمعت فيه جميع الشروط التي تجعل منه استمرارا لتقاليد المعارضة الغربية السابقة على دخول الاستعمار .

لقد درج المؤرخون وعلماء الاجتماع على تعريف الحركة الوطنية انطلاقا من محتواها ومضمونها . هل هي تعبير عن واقع قومي ؟ هل هي نتاج تغير اجتماعي مفاجيء كالتصنيع ؟ هل هي وسيلة في يد جماعة اجتماعية تفصح بها عن أهدافها ؟ هل هي ايديولوجية وظيفية مبعثها محاولة الطبقة المثقفة التي مزقها الازدواج الحضاري وحل أزمتها ؟ هل هي مظهر من مظاهر نفسية الانسان في عهود الانتقال من البداوة الى الحداثة ؟

من الواضح أن هذه التعاريف والتمديدات . هي صور واشكال تاريخية خاصة بأوروبا الغربية في القرن السادس عشر واوروبا الشرقية في القرن التاسع وآسيا والشرق الاوسط وافريقيا في القرن العشرين ، منطبعة انطباعا عميقا بها . لذا فان البحث التاريخي ، قد يكشف لنا عن مضامين أخرى غير تلك المعهودة التي ألفنا ملاحظتها . ومثال المغرب غني بالخصوصيات .

ان الحركة الوطنية ان نظرنا اليها من حيث اجرائيتها . اي بوصفها دورا ، فانها تتجاوز النفسي والايديولوجي والسياسي . أي أنها تجمع بين هذا وذاك داخل بنية سلوك جماعي معينة ، منطبعة بتاريخ المجتمع وماضيه . ففي كل فترة تظهر وضعية جديدة تهدد استمرارية الامة ، ويجيب عنها أفراد هذه الاخيرة انطلاقا من معطيات الثقافة الموروثة . وانطلاقا من ذلك يأخذ نظام من القيم في التبلور قصد مواجهة القيم الغريبة التي تهدد كيان الامة . لذا يبدو أن الحركة الوطنية لا يمكن أن تعرف الا انطلاقا من خصوصية المجتمع الذي تفصح عن استمراريته وتنطق بلسانها . ومن هذا المنظور ، يتجلى ما في الوطنية من هيمنة الماضي على الحاضر ، لذا فهي مظهر من مظاهر التاريخانية .

المغرب